

القرآن الكريم بين بيئات البلاغيين والأصوليين

د. الشايب ورنيني

جامعة الأغواط

الملخص:

يطرح المقال إشكالية تظهر مفهوم البلاغة لدى بيئات أدبية ونقدية انتظمت خريطة الأدب والنقد في بعض مراحل مسيرة هذا الأدب، هذه البيئات قد تتجاوز زمنيا وقد تتباعد، لكن ما يجمعها هو البحث في مفهوم البلاغة تنظييرا وممارسة. هذا المفهوم يبدو مختلفا ومتباينا من بيئة نقدية إلى أخرى، اختلاف الممارسة عن التنظير، فالبلاغة ومؤشراتها لدى الخطباء الفنيين هي غيرها لدى البلاغيين المنظرين الذين ينتصرون للنص القرآني على ما عداها وهي غيرها لدى المتكلمين الأصوليين الذين يؤثرون فكرة الحجاج على غيرها.

هذا المقال يرصد هذا الإشكال ويحاول الإبانة عن منطلقاته ومؤشراته، حتى تُرصد خطوط الإلتاف والتوافق، وتشير إلى نقاط الاختلاف والتباين.

Abstract:

This article tackles the problematic of the appearance of the rhetorical conceptualization in some critical and literary contexts. The realm of literature and criticism has been reshaped in some of the historical phases of this literature which may be in a juxtaposition as they may have remoteness from one another. However, they are all united in the search for the concept of rhetoric both theoretically and practically. This concept seems to be different from one critical context to another, in the same way of the difference in between theory and practice. Rhetoric and its variables for artistic orators in contrast to that for the theoretical rhetorists who defend the the Quranic text compared to others, and it is utterly different for the radical orators who prefer Hadjadj's idea more than any other one. This article detects this problematic and it seeks to reveal its dimensions and indicators to diagnose grounds of analogy and agreement, as to shed light on certain conflicting points and attitudes ...

مقدمة:

دارت الدراسات القرآنية الأولى حول فكرة المجاز وفكرة الإعجاز، أما المجاز فلأذنه في مفهومه الواسع كان يدور حول المعنى وتصريف اللفظ إليه وبذلك لامس مفاهيم التأويل،

الذي تحرج كثير من العلماء عن ممارسته، خشية التقوّل على القرآن، وتحميل النّص القرآني ما لا يقوله، لكنّ مجموعةً أخرى من العلماء رأوا أنّ القرآن أسلوب عربي جرى على الأساليب العربية في نظمه وإن فاقها ولذلك فالكشف عن المعنى الموجود في القرآن من الأولويات التي لا بدّ وأن تُثار.

1- بيئة الدراسات القرآنية والإعجاز:

من أشهر تلك الدراسات "مجاز القرآن" لأبي عبيدة المتوفي سنة 210 هـ، وهو يعني بكلمة "المجاز": طرق الأداء ووجوه التعبير التي سلكها القرآن في إبراز معانيه واصابة غرضه".¹

- وجوه المجاز:

فالمجاز عند أبي عبيدة أعم وأشمل وأوسع دائرة من صنيع المتأخرين الذين حددوا المجاز ما يقابل الحقيقة فهو إلى المعنى اللغوي أقرب منه إلى المعنى الاصطلاحي الذي اصطلح عليه علماء البلاغة أخيراً.

لذلك نراه يطلق المجاز "على الأساليب العربية المختلفة"²، ولعل هدفه الأسى في ذلك هو تعميم الظاهرة اللغوية وتوسيع دائرة البحث العلمي، لتتضح الفكرة وترسم الصورة الكاملة للأسلوب العربي.

فتارة يطلق "المجاز" على المحذوف فيقول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾³، مجازه فهم إخوانكم وهو مجاز بالحذف عند علماء البلاغة المتأخرين.

وتارة يطلق "المجاز" على الغريب، فيقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾⁴، أي موجع من الألم في تفسير قوله تعالى: ﴿طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾⁵ مجازه بغيمهم وكفرهم، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِيَّ نَعْجَةٍ وَاحِدَةٍ﴾⁶ مجازه امرأة وهي كناية عند علماء البلاغة المتأخرين.

فقد تناول في كتابه "مجاز القرآن" كثيراً من الموضوعات البلاغية: كالتشبيه والتمثيل والكناية، والمجاز العقلي والمجاز المرسل وإيجاز القصر وإيجاز الحذف وأطناب التكرير والزيادة، وخروج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى التقرير أو التهديد، ومسألة التقديم والتأخير، فهي وإن كانت هينة لكنها اللبنة الأولى في أساس البلاغة العربية.

كذلك من أجل الدراسات القرآنية كتاب "معاني القرآن" للفراء النحوي اللغوي المتوفي سنة 207 هـ، قد تناول في كتابه جملة من المقاييس البلاغية التي تناولها بالدرس، وينبهي ابن

قتيبة المتوفي سنة 276هـ حيث جند نفسه للدفاع عن القرآن والسنة النبوية واللغة العربية وآدابها بقلمه السيل وأسلوبه الرصين وفكره الناضج.

وقد أفنى عمره في خدمة الدين والقرآن والعروبة طالبا وناشرا ومؤلفا، وكتبه أكبر دليل على هذا القول، الأمر الذي جعل العلامة الجليل ابن تيمية يقول: "كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه لا خير فيه".⁷

ومن أشهر كتب ابن قتيبة في الدراسات القرآنية "تأويل مشكل القرآن" حيث تناول فيه باب "المجاز" وافتتح به، وقرر جهل الناس بأساليب العرب الأمر الذي جرهم إلى الاختلاف في التأويل لعدم التمييز بين الحقيقة والمجاز حيناً، وانكار المجاز في القرآن الكريم حيناً آخر وهم الظاهرية.

كذلك تناول بالشرح والتحليل والدراسة في كتابه "تأويل مشكل القرآن" قضية مهمة لها الأثر البالغ في البلاغة والنقد العربي وهي قضية "الحذف والذكر" من ذلك أن تحذف المضاف⁸ وتقيم المضاف إليه مقامه كقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾⁹ أي سل أهلها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾¹⁰ أي حبه وقوله تعالى: ﴿الْحَرْجُ أَشْهَرُ مَغْلُومَاتٍ﴾¹¹ أي وقت الحج.

ومنه حذف الحروف وقد عبر ابن قتيبة عنها: "بحروف الصفاة" وهو اصطلاح معروف قديما -حرف الجر- كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾¹² أي كالو لهم ووزنوا لهم.

وقوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَتُبِعِينَ رَجُلًا﴾¹³ أي اختار منهم، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾¹⁴ أي مكنا لهم.

والعرب تقول: عددتك مائة أي عددت لك وشبعت خبزاً ولحماً، وشربت ماء ولبناً أي من الخبز واللحم ومن اللبن والماء".¹⁵

وفهم من هذا النص فابن قتيبة يورد النص القرآني أولاً، ثم يتبعه بكلام العرب شعراً ونثراً. وكان منهجه اعتبار القرآن أساساً لكل احتجاج لأنه المثل الأعلى في الأسلوب، وبذلك يخالف جمهرة النقاد التي يحتجون بكلام العرب على القرآن الكريم ليثبتوا مسألة المجاز، وأن القرآن لم يأت العرب إلا بما يفهمون ويفقهون وهؤلاء قليل من كثير ممن تناولوا دراسة

القرآن وبيان أسرارهِ البيانية وكنوزه البلاغية، وأثر هذه الدراسات القرآنية في نمو وتطور البحث البلاغي .

2- بيئة الأصوليين والمتكلمين:

كذلك من البيئات التي خدمت وأسهمت في تطور المباحث البلاغية والنقدية بيئة الأصوليين والمتكلمين بفضل ما تعرضا له من دراسات القرآن، واستخراجا أسرارهِ البيانية وكنوزه البلاغية، وكان هؤلاء يسعون إلى التقييد والاحتجاج على خصومهم ممن أنكر أسلوب القرآن ونفى عنه إعجازه، " فالأصوليون تناولوا جملة من المواضيع البلاغية فدرسوا الألفاظ الحقيقية والمجازية، العامة والخاصة المطلقة والمقيدة".¹⁶

وكذلك درسوا النّص، والظاهر والمجمل، والمبين والمؤول، وغير ذلك من البحوث التي أفادت البحث البلاغي، وكان استنباطهم لأحكام الشريعة واستخلاصها من النصوص يقتضي مثل هذه الدراسة.

وهذا نموذج تطبيقي يوضح ذلك مثل كلمة "الخسر" في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾¹⁷ لفظ عام محكوم به على كل فرد من أفراد الإنسان، إلا من استثناهم الله تعالى بقوله: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾.

ولو لم يكن اللفظ مفيدا للعموم لما ساغ الاستثناء، إذ الاستثناء هو معيار العموم ودليله¹⁸. والمتكلمون سواء أكانوا معتزلة أم أشاعرة ذكروا من خلال دراساتهم وتفسيرهم للقرآن الكريم فنونا بلاغية كثيرة، فأبو الحسن الرماني صاحب "النكت في إعجاز القرآن" المتوفي سنة 386 هـ يأخذ في تعداد وجوه الإعجاز السبعة وهي: "ترك المعارضة مع توفر دواعي وشدة الحاجة والتحدي للكافة والصرفة والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، والنقض العادة، بكل معجزة"¹⁹

"ويشعرنا الرماني بأهمية البلاغة فينتخبها من بين هذه الوجوه السبعة ويخصها بحديث طويل ويستأثر به معظم الرسالة"²⁰

فيذكر تعريف بلاغة وهي: "ايصال المعنى للقلب بأحسن صورة من اللفظ " .

وأقسامها وهي عشرة:

" الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلازم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان "²¹.

ثم يذكر مراتبها وهي على ثلاث طبقات ²²:

1- طبقة عليا: هي بلاغة القرآن الذي بلغ القمة والكمال في الفصاحة والبلاغة والبراعة والبيان .

2- طبقة وسطى: هي بلاغة الشعراء والأدباء والبلغاء والفصحاء والخطباء... إلخ

3- طبقة دنيا: هي البلاغة الجافة والميتة لا روح فيها، أشبه ما تكون بأصوات الحيوان .

ثم يأخذ الرماني بشرح هذه الأجناس، يعرف النوع منها، ويسوق له الأمثلة والشواهد المتعددة من كلام العرب، ومن القرآن الكريم، ثم يخلص إلى توجيه النظر الناقد نحو أسلوب القرآن وأنه من الطبقة العليا التي تبلغ حد الإعجاز.

لقد أفاض الرماني في حديثه عن "الإيجاز" وذكر له صورا متعددة وشواهد كثيرة توضح الفكرة وترسم الصورة الكاملة للإيجاز بالحذف والقصر. ثم يسوق الأمثلة والشواهد مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ ²³.

فالرماني يعقب على هذه الآية بقوله: "وإنما صار الحذف في مثل هذا أبلغ لأن النفس تذهب فيه كل المذهب" ²⁴ وفي ذلك اشارة إلى أن اللغة العربية تهدف إلى مخاطبة النفس واثارتها .

ثم يذكر في معرض المقارنة بين أسلوب القرآن وغيره من سائر الأساليب أن الناس استحسنوا قول القائل: "القتل أنفى للقتل" ولكن إذا قرنت هذه العبارة بقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ ²⁵ تبين فضل ما جاء في القرآن وميزته على غيره من أنواع البيان " ²⁶

ويتضح من هذا أن الرماني يورد كلام العرب أولا، ثم يتبعه بكلام الله ليظهر الفرق بين الأسلوبين، لأن القرآن أصل البلاغة والبيان ولهذا يقاس عليه.

والباقلاني صاحب الكتاب "إعجاز القرآن" المتوفي سنة 415 هـ من أعلام المتكلمين على مذهب الأشاعرة، اعتبر أن أغلب مناقشاته وتقويماته للنصوص هي من قبيل النقد والموازنة بينها .

وهذا نموذج تطبيقي أورده الباقلاني لعله يؤيد ما رأيناه سلفا، يقول:

تأمل موقع قوله تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ وهل تقع في حسن الموقع قوله ليأخذوه "كلمة ؟ وهل تقوم في مقامه في جزالة لفظه ؟ وهل يسد مسده في أصالة نكتة

؟ لو وضع موضع ذلك "ليقتلوه" أو "ليرجموه" أو "لينفوه" أو "ليطردوه" أو "ليهلكوه" أو "ليذلوله" ونحو ذلك ما كان ذلك بعيدا ولا بارعا ولا عجيبا ولا بالغا: فأنقد موضع هذه الكلمة.²⁷

وقد نعى الباقلائي في منهجه النقدي هذه الناحية تطبيقية العملية، فأكثر من الشواهد والأمثلة القرآنية وقد جاء منشورا في كتابه "اعجاز القرآن" ولا يمكن أن يطلع عليه إلا من دقق النظر، واستقصى كتابه بالقراءة الهادئة المتأنية والموضوعية .

ولهذا السبب خفى على كثير من الدارسين، وتقديرا مني لدور طبيعة هذه الدراسات في تحليل النص القرآني وبيان سر إعجازه، فإنني أوضح أثر الذوق والنقد في معرفة الاعجاز القرآني .

يقول ابن خلدون: "وإنما يدرك البعض الشيء من الإعجاز من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته، فيدرك من الإعجاز على قدر ذوقه فلماذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقاما من ذلك لأنهم فرسان كلام وجهابذته والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحه".²⁸

ويقول محمد كريم الكواز: "إن قضية الذوق الأدبي من صميم النقد... ولكننا نجدها في مجال الإعجاز البلاغي لاتعرض إلا إلى الحسن والجودة في النص".²⁹

وأن النقد في أدق معانيه هو: "فن دراسة الأساليب وتمييزها، على أن نفهم لفظ الأسلوب بمعناه الواسع وهو منحنى الكاتب والأديب والناقد وطريقتهم في التحليل والتفسير والتفكير والتعبير والاحساس على السواء"³⁰

ويظهر تأثير بيئة الأصوليين والمتكلمين على بيئة الشعراء والأدباء في قول أبي تمام:

صَاغَهُمْ ذُو الْجَلَالِ مِنْ جَوْهَرِ الْمَجْدِ * دَوَّصَاغَ الْأَنَامِ مِنْ عَرَضِهِ

يقول التبريزي: " هذا مأخوذ من الجوهر والعرض اللذين وضعهما المتكلمون لأن الجوهر عندهم أثبت من العرض"³¹

وقول أبي تمام أيضا:

لَنْ يَدَّالَ الْعُلَى خُصُوصاً مِنْ * مَنْ لَمْ يَكُنْ نَدَاهُ عُمُوماً³²

فقد ذكر الخصوص والعموم وهما من ألفاظ الأصوليين .

وقوله:

كم في الددى لك والمعروف من * * إذا تُصَفِّحت اختيرت على السن³³
فقد ذكر السنن والبدع وهما من ألفاظ الفقهاء.³⁴

الخلاصة:

ومجمل القول: أنَّ هذه البيئات كلها أسهمت بدور كبير في تسجيل الملاحظات البلاغية والنقدية، كما أنَّ جميعها تضافرت وتشابكت وتعاونت في خدمة البحث البلاغي والنقدي، ممَّا عاد على البلاغة والنقد بالتطور والنماء والازدهار.

من هنا لم تعد العملية النقدية تركز على الذوق وحده بل أصبح إلى جانبهم لغويون وأصوليون ومتكلمون وبلاغيون وكتَّاب ينظرون إلى الأدب والشعر وفق أصولهم وقواعدهم كل حسب تخصصه، ومجال صناعته.

ويضعون في ذلك الكتب المختلفة التي قد يكون لها أكثر من غرض علمي واحد فقد تشمل على حديث اللغة والنحو والعروض، ولكنَّها تحمل في طياتها نظرات في النقد.

الهوامش:

- 1- البلاغة والأدب، إبراهيم عبد الباقي الصباغ، مكتبة القاهرة، مصر، ص 15.
- 2- ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية والنقدية والأدبية، د محمد الجري، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلام، ص 71.
- 3- سورة الأحزاب، آية رقم (5).
- 4- سورة البقرة، آية (9)
- 5- سورة البقرة، آية (14)
- 6- سورة ص، آية (22)
- 7- تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية، ص 86.
- 8- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، ص 162--164.
- 9- سورة يوسف آية (82).
- 10- سورة البقرة آية (92).
- 11- سورة البقرة آية (196)
- 12- سورة المطففين آية (3).
- 13- سورة الأعراف آية (155).

- 14- سورة الحج آية (39).
- 15- ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية والأدبية والنقدية، د محمد رمضان الجري، ص 118.
- 16- المباحث البيانية بين ابن الأثير والعلوي، د محمد مصطفى صوفية ص 28، وينظر البرهان في علوم القرآن للزركشي، ت محمد أبو فضل إبراهيم مج1، دار المعرفة بيروت، لبنان، ص 225.
- 17- سورة العصر آية (1).
- 18- علم أصول الفقه والحكم في الإسلام، د.عبد السلام محمود أبو ناجي، منشورات الجامعة المفتوحة، ص 89 .
- 19- ثلاث رسائل في الإعجاز القرآني، ص 69.
- 20- الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، دراسة تحليلية نقدية، د عبد الرؤوف مخلوف، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص 41-42.
- 21- ثلاث رسائل في الإعجاز القرآني، ص 69 وما بعدها .
- 22- المصدر نفسه، نقلاً بتصرف .
- 23- سورة الرعد آية 32.
- 24- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص 69.
- 25- سورة البقرة الآية 178.
- 26- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص 70 ص 71.
- 27- إعجاز القرآن للباقلاني، ص 187.
- 28- مقدمة ابن خلدون، ج 4، دار العودة بيروت، لبنان، ص 1266.
- 29- الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، محمد عبد الكريم الكواز، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ص 156.
- 30- في الأدب والنقد، د محمد مندور، دار النهضة، مصر، ص 8، ص 9 .
- 31- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، دار الكتاب العربي، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه راجي الأسمر، ص 20.
- 32- ديوان أبي تمام، ص 111.
- 33- ديوان أبي تمام ص 172 ورواية الديوان:
- كم في العلى لهم والمجد والبدع**إذا تصفحت واختيرت على السنن
- 34- الفن ومذاهبه في الشعر الجاهلي، د شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ص 221.